

الدعوة الإسلامية والغزو الفكري*

بقلم
الدكتور جعفر شيخ إدريس

* القى هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد بالخرطوم (٢٢ - ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ مارس - أول إبريل ١٩٨١) احتفالاً بالقرن الخامس عشر الهجري .

مقدمة

ما من شك في أن الغرب بشقيه الرأسمالي والشيوعي يرمى العالم الاسلامى كل يوم بوابل من سهامه الفكرية في صورة نشرات خبرية وأحاديث إذاعية، وتمثيلات ومقالات، وصور، وكتب، ومحاضرات جامعية، ودروس مدرسية وغير ذلك من أشكال الفكر والدعاية.

وما من شك في أن هذه مصيبة كبيرة ..

ولكن المصيبة الكبرى هي قبولنا نحن لهذا الفكر كله، وعدم التفرقة بين ما كان منه سماً قاتلاً، وما كان بلسماً شافياً. ولذلك فإن عبارة (الغزو الفكرى) لا تصف الواقع وصفاً دقيقاً^(١).

إذ لو كنا ننظر إلى الفكر الغربى المسلط علينا على أنه غزو لأعدنا لمواجهة ما استطعنا من قوة، ولقاومناه بقدر الوسع والطاقة، ولكن مشكلتنا أننا لا نعتبره غزواً يستعبد بل قوة تنقذ وتحضر وتحرر. ولهذا فأننا لا نكتفى بما يوجهه الغرب إلينا من قذائف، بل نسعى للاستزادة من فكره وحضارته ..

أ - بالذهاب إليه في موطنه لتتعلم منه ليس فحسب العلوم النافعة ولكن التصورات الفلسفية والقيم الخلقية والقوانين والعادات والتقاليد .

ب - وبأن نكون رسله المخلصين إلى بلادنا نبث بين أبنائنا ما تلقيناه عليه ونترجمه إلى لغاتنا الإسلامية ونشرحه وندعوا إليه وندافع عنه فعل المقلد المعجب المشدود الذى لا ينقد ولا يجتهد ولا يقوم .

ج - وباستجلاب كتبه ودورياته وصحفه ومجلاته .

د - وبدعوة أبنائه في شكل مدرسين وأساتذة جامعات وخبراء في شتى المجالات .

فإذا صح أن الفكر الغربى يغزونا، فصحيح أيضاً أن أقوى أدواته لغزونا هم أناس من بنى

(١) عنوان البحث حددته لجنة المؤتمر .

جلدتنا. إنهم حكامنا وإداريون ومدرسون وكتابنا ومحرورو صحفنا وإعلاميون بل وضباطنا وأطبائنا ومهندسون وسائر أفراد الطبقة القائمة في بلادنا إلا من رحم ربك وقليل ما هم .

ومع هذا أقول إن حل مشكلة (الغزو الثقافي) الغربي للعالم الإسلامى لا تكون بقطع
الوشائج الفكرية بيننا وبين الغرب، فإن ذلك غير ممكن وغير مفيد .

وإنما يكون بدراسة الحضارة الغربية دراسة تحليلية عميقة للفرقة بين ما كان منها نافعا
يؤخذ أو ضارا يترك، بميزان علمى خلقى يقبله كل عاقل .

وبدراسة الأسباب العميقة لتبعيتنا لهذه الحضارة وسيطرتها علينا ثم بالتاس الحلول التى
تؤدى إليها تلك الدراسة .

ثم بالعزيمة الصادقة القوية على وضع هذه الحلول موضع التنفيذ .
وسأحاول فى هذا المقال أن أضيف إضافة متواضعة إلى الجهود التى بذلت فى هذا
السبيل، ومن الله العون وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مقتضيات العصر وأهواء العصر:

أنصار الفكر الغربى فى بلادنا وكثير من أئمنه فى بلاده يصورون الحضارة الغربىة على أنها حضارة العصر، لا بمعنى أنها الحضارة السائدة والمسيطره فىه، فذلك أمر حسى لا ينكره إلا مكابر، ولكن بمعنى أن فكرها وقيمها هى القيم التى يقتضيتها العصر .

والإنسان بطبعه يميل إلى أن يكون ابن عصره، يلبس كما يلبس أبناء العصر، ويسكن كما يسكنون، ويتكلم كما يتكلمون، ويتعلم كما يتعلمون ما يعينه على أن يعيش كما يعيشون. والأمم تميل مثل هذا الميل فلا تريد التخلف عن ركب الأمم المعاصرة لها فى مسكن ولا ملبس ولا قوة ولا علم يسهل الحياة ويوسع الآفاق وينير البصائر. ولكن البون شاسع بين المعاصرة والإمعية .

إن المفهوم الصحيح للمعاصرة كما أتصوره هو أن تكتسب الأمة تلك العلوم والمهارات والأدوات والأشياء التى يقتضيتها العصر، يقتضيتها بمعنى أن الأمة التى لا تكتسبها تكون متخلفة بالقياس إلى أمم معاصرة لها فى إنتاجها المادى، وقوتها العسكرية، وأثرها الثقافى، وتكون لذلك أمة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بله أن تنشر فكرها وثقافتها .

فإذا شعرت أمة كالأمة الإسلامية أنها تخلفت عن ركب التاريخ فعزمت على اللحاق به فمن الطبيعى أن تنظر فى حال الأمم التى سبقتها لتعرف سر تفوقها فتتعاطاه كى تكون مثلها. ولكن هذا هو الوطن الذى زلت فيه أقدام كثير من القادة والمفكرين من أبناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التى أرادت أن تحذو حذو الغرب لتلحق به. وسبب الزلة أنهم حسبوا أن كل ما فى الغرب فهو من لوازم العصر ومقتضياته ولم ينظروا نظرة الباحث المتروى الذى يحاول جهده أن يفرق بين مقتضيات العصر وأهواء العصر، أو بين أسباب التقدم الحقيقىة وملابسائه العرضية . فكان مثلهم كمثل رجل سبقه آخر فى مباراة الجرى فقال لكى أكون عداء مثله فلا بد أن اتخذ قميصا كقميصه وثباناً كثبانه^(٢) شكلا ولونا وحجما. لا

(٢) الثبان هو السراويل القصيرة .

تستغربوا ما أقول فأنا أصور واقعا ولا أرسم «كركتيرا». ألم يرو لنا الفيلسوف والأديب المصرى الشهير الدكتور زكى نجيب محمود عن نفسه أنه مر عليه زمان كان يرى فيه «أنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترا، وعشنا مع من يعيشون فى عصرنا علما وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إنى تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون ونجد كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن منى آتئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فأما أن نقبلها من أصحابها - وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع - وأما أن نرفضها وليس فى الأمر خيار بحيث نتقى جانبنا ونترك جانبنا كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال»..^(٣)

إن هذا الأستاذ ليس شاذا بين مثقفى العالم الاسلامى، وأقواله هذه ليست فلتات عابرة وإنما هى تعبير عن حال فريق كبير من مثقفى هذه الأمة وعوامها .

ولكن أصبح أن كل ما فى الغرب من فكر هو من مقتضيات العصر، بحيث يصبح الذى يرفضه متخلفا عن ركب عصره، أو عائشا خارج التاريخ كما يقولون ؟ لكى نجيب على هذا السؤال لابد أن نلقى على الفكر الغربى نظرة تحليلية فاحصة لنرى مم يتكون هذا الفكر ؟ ولنعرف أى مكوناته لازم لعصرنا وأيها طارىء عليه .

مكونات الحضارة الغربية:

إن الحضارة الغربية تتكون على وجه الإجمال مما يلى:
أولا: حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية أو نفسية ثبتت صحتها بالتجربة الحسية أو البرهان العقلى .

ثانيا: نظريات عملية عن الطبيعة أو الإنسان فردا وجماعة وهى ثلاثة أنواع:
أ - نوع نجح فى تفسير كثير من الظواهر ولم نجد ما يدل على بطلانه وإن كنا لا نقطع بصحته .

ب - نوع ما زال فى طور التجربة .

ج - نوع ثبت بطلانه .

(٣) تجديد الفكر العربى دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠ ص ١٣ .

- ثالثا: تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة أدى إليها تطور العلوم الطبيعية والرياضية.
- رابعا: مهارات تقنية وإدارية مبنية على تلك العلوم .
- خامسا: تصورات دينية أو فلسفية للوجود ومكانة الإنسان فيه وللقيم الخلقية والجمالية وعلاقة الفرد بالمجتمع .
- سادسا: أدب وفن يعبر عن هذه التصورات .
- سابعا: أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات.
- ثامنا: ولكن الفكر الغربى بشقيه الليبرالى الرأسمالى والأسمى الشيوعى ليس مجرد خليط من الأفكار والتصورات المتأثرة القوة والفاعلية، بل إن منه ما يمكن اعتباره الفكر المسيطر المهيمن على غيره، والذي يمثل الأصل والاطار التصورى الشامل للفكر الغربى، ويمثل فى ذات الوقت معياره التقويمى للحق والباطل، وللخير والشر، لما ينبغى أن يبحث وما ينبغى أن يهمل، ولما يقبل وما يرفض؛ بل ويمثل الإطار الذى توضع فيه الحقائق العلمية ومن ثم تفسر تفسيراً يتناسب معه وتستنتج منها نتائج توافقه.
- هذا الفكر السائد المهيمن فكر الحادى مادى فحواه:
- أ - أن الواقع الموضوعى يتكون فى النهاية من لبنات مادية متناهية الصغر فى حجمها متحركة فى فراغ .
- ب - أن كل ما فى الوجود فهو إما هذه اللبنات، وإما أشياء مركبة منها، وإما علاقات بينها وما سوى ذلك فلا وجود حقيقى له .
- ج - ان طبيعة هذه المركبات سواء كانت اجساما جامدة أو كائنات حية، أو جماعات بشرية تفسرها فى النهاية طبيعة اللبنات المكونة لها. هذا على الرأى السائد بين جمهرة المشتغلين بالعلوم الطبيعية، وهنالك رأى لكثير من فلاسفة العلوم يقول ان المركبات تكتسب بحكم تركيبها طبيعة جديدة لا يمكن ردها الى الأجزاء المكونة .
- د - أنه ينبغى لذلك أن نلتمس تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والحيوية والفيزيائية فى أسباب ضمن هذا الكون المادى، أى أن الكون المادى كون مكتف بنفسه، غير محتاج الى قوة خارجه تخلقه أو ترسم مساره أو تدبر أمره .
- هـ - ولذلك فإن كل عبارة تنطوى على دعوى تخالف فى ظاهرها هذا التصور، فاما أن نحكم بطلانها واما أن نعيد تفسيرها. بحيث نجد لها مكانا داخل هذا الاطار الالحادى المادى.

و - وكل ظاهرة يُدعى أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهى إما كذب أو وهم لا أساس له .

ز - وكل تفسير للظواهر النفسية أو الاجتماعية .. الخ بأسباب خارج هذا الإطار لا يعتبر تفسيراً علمياً، أى أن التفسير العلمى هو بالضرورة تفسير الحادى. حتى أن كلمة العلم أصبحت فى العالم كله تقريباً علماً على هذا التصور الاحادى للعلم. ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين .

هذه الفلسفة الاحادية تمثل كما قلت إطار الفكر الغربى كله، بما فى ذلك الحقائق العلمية؛ فحتى هذه توضع داخل هذا الإطار ومن ثم ينظر إليها من خلاله، وتفسر تفسيراً يتناسب معه، ولا يستنتج منها إلا النتائج التى توافقه. إن كثيراً من الناس يعتقدون أن الحقائق الجزئية المشهودة هى وحدها المهمة، وأن لها الغلبة على التصورات الفلسفية، ولكن الحقيقة أن الإطار التصورى الخاطى يؤثر على نظرة الإنسان إلى الحقائق الجزئية، ويحجب عنه مدلولاتها الحقيقية.

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوِّءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا »

(الفرقان : ٤٠)

أفلم يكونوا يرونها ؟ بلى كانوا يرونها، وكيف لا يرى الإنسان بلداً كاملاً وهو يمر عليه ذاهباً وآيماً ؟ ولكنهم لم يستنتجوا من رؤيتهم لها العبرة التى ينبغى أن تستخلص لأن تصورهم المنكر للبعث يمنعهم من هذا الاستنتاج، ويقف بهم عند حدود الظواهر

« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »

(الروم : ٧)

المتقفون فى الغرب كله بشطريه - إلا فئة قليلة - متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة المادية الإلحادية، فمنهم من يقبلها قبولاً كاملاً ويعلم كفره بالله وبالدين فى صراحة، ومنهم من يعتبرها منهجاً علمياً ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه، أو ناقش زملاءه، ثم يخلعه إذا ذهب لكنيستته، أو بيعته، ومنهم من يقبله حقيقة ولكنه ينتمى إلى الدين اسماً لأنه يفسر كل المفاهيم الدينية تفسيراً لا يخرج عن هذا الإطار .

أنا لا أنكر أن من المفكرين الغربيين من ينكر الفلسفة المادية وينتقدها، ولكنى أقول ما كل من ينكر الفلسفة المادية فهو مؤمن بل إن من أشد أعداء الفلسفة المادية قوم ملحدون، والذين ينكرونها على أساس دينى ينتمون إلى أديان شركية خرافية .

هذه هى أهم مكونات الحضارة الغربية .. فماذا نأخذ من هذه الحضارة وماذا ندع ؟

يرى فريق من المثقفين فى العالم الاسلامى - كما رأينا من قبل - اننا ينبغى أن نأخذ هذه الحضارة كلها بما فى ذلك إطارها الفلسفى، ونطرح كل ما خالفها من دين وتراث وعادات وتقاليد. لماذا ؟ لأن إطارها الفلسفى هو الذى يمثل فلسفة العصر، لا بمعنى أن التصور السائد بين جمهرة المشتغلين فى الغرب بالعلوم الطبيعية أو البشرية وفلسفتها، فذلك أمرهين وقد يكون حقا، ولكن بمعنى أنها التصور الذى يقتضيه العصر والذى يعتبر متخلفا عن عصره كل من لا يقول به .

ولكن أصحيح أن هذا التصور الالحادى لازمة العصر ؟

إن هذا التصور ليس جديدا، وأنه لا رباط منطقى بينه وبين أهم ما يمتاز به العصر وهو العلوم الطبيعية وما انتجته من تطور صناعى .

إن هذا التصور ليس جديدا وإذا ثبت أنه ليس جديدا فقد ثبت أنه ليس مما أنتجه عصرنا، وإنما هو مما أخذه بعض أبناء هذا العصر عن أسلافهم الملحدين ثم روجوا له وألبسوه ثوب العلمية والمعاصرة .

ودليلنا على عدم جدته أن الناس منذ قديم العصور منقسمون فى تصوراتهم للوجود إلى فريقين: فريق يرى الكون المادى فقيرا غير مكتف بنفسه، شاهدا على خالقه، الذى ليس كمثل شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، وأن هذا الكون المرنى ليس كل ما خلق هذا الخالق الحكيم، فان له مخلوقات أخرى منها ملائكة ومنها جن، ومنها جنة تختلف طبيعة الأشياء فيها عن تلك التى نعرفها فى عالمنا هذا وان اتحدت الأسماء .

وفريق يرى أنه لا حق إلا ما أدرك بالحس المباشر وأن الكون غنى بذاته، وأنه لا خالق ولا بعث ولا ملائكة ولا جن .

وفريق ثالث يتردد بين هذين الموقفين اللذين لا يمكن الجمع بينهما فيميل هنا تارة وهناك تارة أخرى فتأتى أقواله متناقضة ومواقفه متعارضة .

لنا على قدم هذا التصور الإلحادى أدلة كثيرة، نكتفى ببعض ما رواه لنا القرآن الكريم من أقوال الأمم الكافرة، وبعض ما قاله أصحاب الفلسفة المادية من فلاسفة اليونان وبعض أقوال الذين تأثروا بهؤلاء ممن سموا بفلاسفة الإسلام .

يروى لنا القرآن الكريم أن الكفار من بنى اسرائيل بنوا كفرهم على أساس أنهم لم يروا الله الذى يحدثهم عنه موسى :

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً »

(البقرة: ٥٥)

وكرر بعض كفار العرب نفس القول فاشتروا لأيمانهم أن يأتى الرسول بالله والملائكة قبلا (الإسراء : ٩٢)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا »

(الفرقان : ٢١)

واشتروا لأيمانهم بالبعث أن يبعث من مات من آبائهم كى يروهم عيانا:

« وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ جُحُتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

(الجمانية : ٢٥)

وفى مجال الزعم بأن الكون المادى مكتف بنفسه غير محتاج إلى قوة من خارجه قالوا:

« وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »

(الجمانية : ٢٤)

وكذلك فسروا حوادث التاريخ بأنها مصادفات من فعل الدهر لا أقدار خالق حكيم

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

(الأعراف : ٩٤ - ٩٥)

قال ابن كثير: «وقالوا قد مسنا البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات...» (٤).

وأما الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر فقد كان فكرا شركيا إلهاديا وقد وجدت في هذا الفكر جذور الفلسفة المادية الإلهادية في شكل المذهب الذري الذي قال به ليوسيبس في حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، كما قال به من بعده واشتهر به ديمقريطس، خلاصة هذه الفلسفة أن كل الموجودات تتكون من ذرات مادية صلبة لا تنقسم، وأن هذه الذرات أزلية في ذاتها وفي حركاتها وأنه لا خالق لها ومدبر لامرها. وأرسطو الذى انتقد هذا المذهب كان هو نفسه معتقدا بأزلية الكون وأزلية الحركة وهو اعتقاد يتنافى مع وجود الخالق ويتسق اتساقا تاما مع المادية الإلهادية .

وكما أن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام من أمثال ابن سينا تأثروا بالفلسفة الأرسطية وقالوا كما قال بأزلية العالم، فقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمذهب الذري فقالوا إن الكون مكون من ذرات وأن الخلق إنما هو جمع وتفريق لهذه الذرات. ولم يقتصر تأثر المسلمين بالفلسفة المادية الإلهادية على هذا فقط، بل إن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام كانوا

(٤) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ط٣، ١٣٩٩، ج٢، ص ٣٧

يحاولون جهدهم أن يفسروا كل شئ إسلامى فى هذا الإطار الإلحادى اليونانى، فقالوا لذلك إن الملائكة هى قوى الخير والجن قوى الشر، والله هو العقل الفعال والوحى قوى نفسانية، إلى غير ذلك من المسائل التى كفرهم بسببها بعض علماء الإسلام .

٢ - الفريق الثانى من المتأثرين بهذا التصور هو فريق المنتسبين إلى الإسلام صدقا أو نفاقا، والذين يتصورون الوجود، بل ويحاولون تفسير الإسلام، ضمن هذا الإطار الإلحادى كما فعل أسلافهم ممن سمو بفلاسفة الإسلام - هؤلاء فى نظرى أخطر من الفريق الأول؛ فالفريق الأول عدو سافر، وهذا عدو مستتر. فنقل الإلحاد إلى جماهير المسلمين بوساطتهم أسير وتلبسهم عليهم أشد. ولا يستغربين أحد ما أقول، فإن مؤرخى الفكر الغربى يردون جذور الإلحاد إلى فلسفات ديكارت وكانت رغم أنها كانا يؤمنان بوجود الله، ولكن العبرة ليست بما يؤمن به الكاتب فى داخل نفسه، بل بما يدل عليه قوله وما يلزم عن هذا القول.

أنا لا أريد أن أقول إن كل من يفسر الإسلام ضمن هذا الإطار ملحد حقا، مظهر للإسلام - إن أظهره - نفاقا، ذلك لأننى أظن أن الكثيرين منهم يقبلون هذا الإطار على أنه الإطار العلمى وهم حين نحسن الظن بهم يريدون أن يبينوا أنه لا تعارض بين الإسلام والمنهج العلمى والحياة المعاصرة. ولذلك فإنهم يقدمون تفسيراتهم هذه على أنها التفسير الذى يقتضيه العلم وتقتضيه مسأرة الإسلام لظروف العصر لا على أنه التفسير الإلحادى للدين . وهم فى هذا سالكون منهج كثير من المفكرين المسيحيين مشابهون لهم أو متشبهون بهم .

هذا الفريق نوعان منهم من قبل هذا الإطار، لا فى مجال التشريع العلمى فحسب بل وفى مجال العقيدة أيضا، ومنهم من قبل لوازمه فى مجال التشريع، وإن لم يقبلها فى مجال العقيدة أو ظل على الأقل صامتا عنها فى هذا المجال .

وليبيان خطر هذا التصور فى مجال العقيدة وشناعته أقول:

إن الإيمان بالله واحدا لا شريك له هو لب الإسلام وعماده، فهو الإطار الذى يحوى كل تفاصيله، وهو الأساس الذى تبنى عليه كل فروعه، وهو المقدمة التى تستخلص منها كل نتائجه. والعلم بالله تعالى هو أشرف العلوم وأنفعها لأنه كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد

إيمانه به وثقته فيه وتوكله عليه وحبه له وخوفه منه، ورجاؤه وشكره وطاعته وسائر الحالات والصفات المعبرة عن إخلاص العبودية له تعالى. وقد تفضل الله تعالى فعرّفنا بنفسه في كتابه المنزل، وعلى لسان نبيه المرسل. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بالله وأشدّهم له خشية، وكان أصحابه من بعده أعرف هذه الأمة بربها وأشدّها له خشية، والطريقة التي سار عليها هؤلاء الأصحاب في فهم ما قاله الله تعالى عن نفسه، وما قاله عنه رسوله أن يثبتوا له كل صفة أثبتتها لنفسه في القرآن أو السنة على أنها صفة حقيقية وأن ينفوا عنه كل ما نفاه عن نفسه، فإذا قال تعالى إنه سميع بصير حيّ قيوم، أثبتوا له هذه الصفات، وإذا قال إنه تعالى يحب ويرضى ويكره ويغضب قالوا عنه ما قال عن نفسه، وإذا أثبت لنفسه وجهًا ويدا قالوا إن له وجهًا ويدا، وإن قال «الرحمن على العرش استوى» أثبتوا لله صفة الإستواء وآمنوا بأن العرش والكرسى من مخلوقاته، ولم يمثلوا شيئًا من هذه الصفات الإلهية بصفات المخلوقين لأنهم يعلمون أن الله ليس كمثله شيء، ولم ينفوها عنه أو يؤولوها تأويلًا يبطل حقيقتها لأنهم يعلمون أن ذاتا بلا صفات حقيقية هي وهم لا حقيقة له. على منهج هؤلاء الصحابة الكرام سار من جاء بعدهم من كبار التابعين وتابعيهم وسائر أئمة أهل السنة والجماعة. ولكن هذا العلم بالله تعالى الذي هو أشرف العلوم وأهمها لا يكاد اليوم يوجد إلا عند قلة من الناس وذلك لأسباب تاريخية منها تأثر المسلمين بعقائد ومذاهب جاهلية أهمها الفلسفة اليونانية المادية. لقد أثرت هذه الفلسفة في علم الكلام، وصار علم الكلام - مع الأسف - هو المختص بموضوع العقيدة وصفات الخالق تعالى. ولكن هذا الاتجاه المنحرف يُعَضِّد اليوم بأسباب جديدة هي تأثر المسلمين المتزايد بالتصورات الغريبة المادية.

لقد كانت المعرفة الصحيحة بالخالق تعالى تقول إنه هو الحق، وكانت تقول إن أصدق كلمة قالها الشاعر «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وإذا كان الله تعالى هو الحق بإطلاق، فإذا أثبت لنفسه صفة كانت في حقه صفة حقيقية يتصف بها على وجه الكمال اللائق به سبحانه، وإذا اتصف المخلوق بهذه الصفة كانت في حقه أيضا صفة حقيقية على وجه النقص اللائق بالمخلوق. فالله تعالى عليم حكيم رحيم سميع بصير والمخلوق موصوف بالعلم والحكمة والرحمة والسمع والبصر، فالأوصاف في الحالين أوصاف حقيقية لا مجازية ولكنها في حق الله تعالى أحق لأنه هو الحق بإطلاق، وهي في حقه أوصاف كمال لا يماثلها ولا يدانيها أوصاف المخلوقين.

ثم تغير الحال. فاعتبر الناس بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال - وجود المخلوقات المشهودة هو الوجود الحقيقي، فصفاتها هي الصفات الحقيقية، وما لم يكن هاديا مشهودا فهو إلى الفكرة الذهنية أقرب منه إلى الحقيقة الواقعية. ونتج عن هذا التصور اتجاهان منحرفان .

إتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة فلا بد أن يكون الله جسما، وإذا نسب لنفسه يدا فلا بد أن تكون كيدنا لحما ودما، وإذا قال إنه سميع بصير فلا بد أنه يسمع بأذنين مثل آذاننا ويرى بعينين مثل عيوننا تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. هؤلاء هم الذين سماوا في تاريخ الإسلام بالمشبهة والمجسمة .

وإتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة، وبما أن الله تعالى ليس كهذه فإنه لا يتصف بها حقيقة بل مجازاً، ولذلك فقد رفض الغلاة منهم أن يثبتوا لله تعالى أى صفة من الصفات فرفضوا حتى القول بأنه موجود، لأن هذا بزعمهم تشبيه له بالمخلوقات. وهؤلاء هم الذين عرفوا في تاريخ الإسلام بالجهمية .

ولذلك فإن أهل السنة حين يبينون عقيدتهم يميزون أنفسهم عن هذين المذهبين الضالين، فيقولون إنهم يثبتون لله ما أثبت لنفسه من غير تشبيه ولا تمثيل (وهو المذهب الأول) ولا تحريف ولا تعطيل (وهو المذهب الثانى).

وقد أثر هذا الإتجاه الأخير في كثير من الفرق الإسلامية حتى تلك التى تنتسب منها إلى أهل السنة والجماعة فلجأوا إلى مثل تأويلهم التعطيل لبعض الصفات التى ظنوها لا تكون حقيقة إلا فى حق المخلوقين فقالوا مثلاً عن قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» أى استولى فكان رد أئمة أهل السنة عليهم أولاً أن الاستواء لا يعنى الاستيلاء فى اللغة فالتفسير خطأ إذن من حيث اللغة، وثانياً على فرض أنه الاستيلاء فهل تقولون إن الله تعالى استولى كاستيلاء البشر؟ إن قلتم نعم صرتم مشبهة وإن قلتم استولى استيلاء لا كاستيلاء البشر فلماذا لا تقولون استوى لا كاستواء البشر كما قال سلف الأمة الراشدون .

لكن هذا المذهب التعطيل يعود إلى الظهور من جديد فينتشر بين كثير من المتدينين من

المسلمين وغيرهم، وما ذلك إلا لأنه يجد سنداً من التصور المادى المعاصر، هذا التصور الذى يقول كما رأينا سابقاً إن الوجود الحقيقى إنما هو وجود الذرات المادية ومركباتها، ومن البديهي أنه لا مجال للخالق فى نطاق هذا التصور، إذا قلنا إن صفاته صفات حقيقية. لا بد إذن من تأويل هذه الصفات واعتبارها مجازاً أو رموزاً ولكن هذا معناه أن الخالق تعالى يكون مجرد فكرة فى الأذهان لا وجود حقيقى لها فى الأعيان. فلا يوصف لذلك بصفة ثبوتية فيقال إنه كذا وكذا، بل تكون كل صفاته سلوباً فيقال إنه ليس كذا وليس كذا. هكذا قالت الجهمية فى الماضى، وهكذا يقول رجل كالأستاذ محمد أسد. إنه يقول عن الله تعالى ما ترجمته «..... إننا لا نستطيع أن نتخيله» وهذا صحيح، إذا كان المقصود به أن تكون له صورة كيفية فى أذهاننا. ثم يقول «كل ما نستطيع أن نعرفه عنه أنه ليس كذا وكذا»^(٥) ثم يمضى لذلك فيؤول صفاته الثبوتية كالاستواء والسمع والبصر بل ويؤول السماوات والكرسى .

وما يقال عن الله تعالى يقال عن عالم الغيب كله تقريباً. إن المحاولة دائماً هى بتأويل هذه الحقائق بحيث تصبح قابلة لأن تكون جزءاً من الإطار المادى. يقول الشيخ محمد عبده عن الملائكة فى كلام طويل فى تفسيره، «فكل أمر كلّى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الألهية فى إيجاده فأئماً قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكاً. ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كلن لا يعرف من عالم الأمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة. والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو انكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات.»^(٦) ثم انتقد تعريف الملائكة بأنها اجسام نورانية قابلة للتشكل بأن النور وحده لا قوام له يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجزم آخر، وأن الشئ الواحد لا يمكن أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة.^(٧)

The Message of the Quran, London 1980. P. 990. (٥)

تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٣، القاهرة ١٩٧٢. (٦)

ج ١ ص ٢٢٥. (٧)

يقول تلميذه الأستاذ رشيد رضا - عليه رحمة الله -

«هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة»^(٨).

وأقول لا بأس على الداعية إلى الإسلام أن يقرب معانى ألفاظه إلى الناس بالمألوف من ألفاظهم ومعارفهم، ولكن هذا شئٌ وتفسير حقائق الإسلام بما يوافق أجواء العصر شئٌ آخر. وما فعله الأستاذ محمد عبده هنا هو من القبيل الثانى لا الأول. والذي يغرى الداعية الحديث بالوقوع في مثل هذا التفسير هو أن كثيرين من معاصرينا يقبلونه ويرتاحون إليه ويعتبرونه التفسير الذى يقتضيه العقل. ولكنهم إنما يقولون هذا لأنهم متأثرون بثقافة عصرهم، لا لأن عقولهم أكبر من الأسلاف الذين قبلوا حقائق الغيب كما وصفها الله تعالى. إن كل ما يخالف العقل باطل لا محالة. ولكن ما العقل ؟ إن كثيرا من المفكرين يسلمون بمقدمات باطلة في تصورهم للكون، ثم يعتقدون أن المعقول هو ما كان موافقا لتلك المقدمات فيخلطون بين الممكن عقلا والممكن في حدود إطارهم التصورى. بل إن من الخطأ الذى نبه عليه كثير من العلماء الغربيين أنفسهم الظن بأن الممكن عقلا يطابق الممكن في حدود العلم التجريبي .

هذا خطأ، لأن دائرة الممكن عقلا أوسع من دائرة الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي، إذ لو كان الأمر كذلك لصح أن نقول إن كل ما لا يمكننا تفسيره في حدود علمنا التجريبي، فهو وهم لا حقيقة له. ولو آمن العلماء بهذا المبدأ لتوقف العلم عن التقدم منذ زمن طويل، ولكن الحقيقة أن ما لم يمكن تفسيره في حدود العلم بالأمس أمكن تفسيره اليوم وما لا يمكن تفسيره اليوم سيمكن غدا بأذن الله. وذلك لأن دائرة العلم في اتساع دائم. ولكن العلم التجريبي مهما اتسعت دائرته فلن يستطيع تفسير بعض الحقائق، لا لأن تفسيرها غير ممكن، ولا لأنها مخالفة للعقل، ولكن لأنها تقع خارج المجال الذى حدده هذا العلم لنفسه. وكونها خارج المجال لا يعنى أنها أوهام أو دعاوى لا دليل عليها بل إن عليها لأدلة تتناسب مع طبيعتها. ولكن هذا ليس مجال الإنفاضة في هذا الموضوع .

من الخطأ الشائع تسمية أصحاب هذه المدرسة بالعقلانيين إذ ما كل من ادعى الاحتكام

(٨) ج ١ ص ٢٢٧ .

إلى العقل بعقل، وكيف يكون عقلانيا من يحد العقل بحدود الفلسفة المادية أو بحدود الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي الذي بلغه الناس في زمانه ؟ لو كان هؤلاء عقلانيين لصح أن نصف بالعقلانية أولئك الذين أنكروا إسرائا الرسول من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في ليلة. لقد أنكروا أمرا لا نعتبره اليوم مستغربا حتى بوسائلنا المادية، ولكنهم انكروه لأن علمهم ضاق فحصر الممكن عقلا في المألوف لديهم من وسائل الانتقال. وكذلك يفعل أصحاب هذه المدرسة اليوم، فيضيّقون بكل امر جاء به الدين لا يجدون له - إن أخذوه على ظاهره - تفسيراً في حدود معارفهم فيظنون هذا الظاهر مخالفا للعقل فيؤولونه تأويلات تجعله مناسباً لما حسبه مقتضى العقل، وإنما هو مقتضى الألف والعادة. ولذلك فإنهم يضيّقون بكل ما ورد في القرآن والسنة من أحداث خارقة لمعتقد الناس ويؤولونها تأويلا يجعلها أمرا عاديا، فالطير الأبايل هي الجراثيم^(٩)، ونفق الجبل فوق بني إسرائيل إنما كان زلزالا وانفلاق البحر لموسى كان جزرا.^(١٠)

والنوع الثاني هو الذي لا يهتم بأمثال هذه التصورات الأساسية سواء كانت إسلامية صحيحة أو غريبة باطلة، ويعتبرها كلها لقصر نظره من الكلام النظري الذي لا يؤثر في الواقع العملي . ولكنه مع ذلك متأثر بنتائج التصور الإلهادي في تصوراته الفكرية وتصرفاته العملية. فهو لا ينظر إلى الفكر الغربي في مجال الإقتصاد أو السياسة أو القانون ... الخ على أنه تقاليد حضارة معينة قد تخطئ وقد تصيب، ولكنه يعطيه صفة الإطلاق فيحسب أن إقتصادهم هو الإقتصاد وقانونهم هو القانون. وإن لم يقل الإقتصاد المطلق أو القانون المطلق فهو يراه على الأقل الإقتصاد أو القانون الذي يقتضيه العصر وتقتضيه الحضارة الإنسانية، ولذلك فإن كل ما في الإسلام مما يخالفه ينبغي أن يعاد تفسيره، بحيث يصبح موافقا لمواصفات الحضارة الغربية، والغريب أنهم يسمون كل هذا اجتهدا وتجديدا. أغريب هو ؟ كلا فان هذا هو المنهج الذي تسلكه كل الإنحرافات فكرية كانت أو خلقية. إنها تسمى أباطيلها بأساء براقة لا تعبر عن حقيقتها ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم «ليشر بن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»؟^(١١)

(٩) محمد عبده .

(١٠) محمد أسد .

(١١) حديث صحيح رواه النسائي وابن ماجه وأبو داود .

ألم يقل الله تعالى عن المنافقين:

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ »

(المنافقون : ٤)

ألم يقل عن أعداء أنبياء الله:

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »

(الأنعام : ١١١)

هذه هي النظرة التي جعلت بعضهم يتخرجون وبعضهم ينكرون أشياء مثل تعدد الزوجات، ورجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، وحجاب المرأة، وإعفاء اللحي، وتحريم المعازف والربا واختلاط النساء بالرجال .

وسبقت للدفاع عن هذا الإنكار حجج وتعلّات من أوهى وأسخف ما يتصوره الإنسان، ولا عجب فإن الداعى إلى الإنكار ليس هو هذه الحجج وإنما معرفة المنكرين بأن هذه الأشياء مما يستبشعه العقل الغربى المعاصر، واقتناعهم بأن كل ما يستبشعه هذا العقل فهو المُستَبَشَع لأنه إنما ينكر ويستبشع ما كان مخالفا للعلم معرقلا للحضارة الإنسانية .

٣ - ولم يقتصر أثر الفكر الغربى على التصورات الإعتقادية والآراء التشريعية وإنما تعداه إلى الأذواق والمظاهر فالزى القومى فى كثير من بلاد العالم الاسلامى أصبح دليل التخلف سىما فيما يتعلق بالنساء، وكل ما يفعله الغربيون رجالا ونساء بشعورهم جميل وكل ما نفعله نحن إن لم تقلدهم قبيح، وإذا احتفلوا برأس السنة الميلادية فينبغى أن نحتفل وأن نحتفل بطريقتهم، وإذا جعلوا لأبنائهم أعياد ميلاد فكذلك ينبغى أن نفعل، إلى آخر ما لا يكاد يحصى من أنواع التشبه .

إن التقليد فى المسائل الشكلية أقل خطرا ما فى ذلك شك، ولكنه ربما كان أدل على التبعية العمياء لأنه إن اختلقت للمتابعة فى التصورات والتشريعات تأويلات ومسوغات

فكرية، فلا يمكن أن يوجد للتقليد في المسائل المظهرية مسوغ غير الافتتان بالمثل، واعتباره المعيار لما ينبغي أن يفعل وما ينبغي أن يترك. ولكن التقليد في المظاهر له آثار خطيرة قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، إذ من الثابت أن هنالك علاقة بين المظهر والمخبر، وعليه فالذى يوافق طائفة معينة في مظهر تمتاز به ويعد شعارا لها خلى أن يجد في نفسه ميلا لموافقتها في مخبرها، ثم إن المظاهر كثيرا ما تكون تعبيراً طبيعياً عن حالات نفسية ومبادئ تصورية، فالتشبه بأصحاب هذه الحالات والتصورات في مظهرهم، يساعد على أحداث تلك الحالات والتصورات في المثل.

٤ - إن كثيرا من مواقفنا السياسية لها جذور فكرية في هذه التبعية للثقافة أو الحضارة الغربية، فاتخاذ الشيوعيين وكثير من اليساريين مواقف مؤيدة لموقف المعسكر الشيوعي في القضايا العالمية حتى ما كان منها خاصا بالعالم الإسلامي هو تعبير عن موقف حضارى قبل أن يكون موقفا سياسيا .

لكن هذه التبعية الحضارية ليست قاصرة على الشيوعيين. فالتبعية الحضارية للمعسكر الغربى تنتج عنها نفس الآثار السياسية فصلح كامب ديفيد مثلا سبقه صلح مع الحضارة الغربية، سبقته كتابات لمفكرين مؤثرين كبار بأن هذه الدول الغربية هى المثل الذى ينبغي أن يحتذى، فكل ما كان أقرب إليها كان أكثر حضارة وأجدر بالإحترام والتوقير، وبما أن إسرائيل هى قطعة من الغرب فى البلاد العربية، وبما أن البلاد العربية متخلفة بالقياس إليها فإن معاداتها معاداة للحضارة الغربية ودليل على التخلف .

٥ - إن الافتتان بالحضارة الغربية فى تصوراتها الإعتقادية، وأحكامها التشريعية وقيمها الخلقية، ومظاهرها الذوقية لم ينتج عنه مواقف سياسية موالية للغرب فقط، وإنما نتج عنه محاولة لإعادة صياغة المجتمعات الإسلامية كلها فى قوالب غربية، فى تركيبها الاجتماعى، ونظمها القانونية، وأوضاعها الاقتصادية، وبرامجها التعليمية، ووسائلها الإعلامية، على اعتقاد بأن هذه الصياغة شرط ضرورى لنهضة الأمم الإسلامية، وتحويلها من مرحلة التخلف والرجعية الى مرحلة التقدم والمعاصرة .

ماهى أسباب هذه التبعية:

إن الإنسان بطبعه ميال إلى حب الموافقة والتقليد ولذلك قيل ان الناس كأسراب القطا، إن الإنسان مخلوق اجتماعى فأكبر عقاب له أن تعزله عن المجتمع فى سجن انفرادى. ولكى يعيش الفرد مع الناس لا بد أن يدفع ثمن ذلك موافقة لهم فى أفكارهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم لأن المجتمع يقسو على من يشذ عنه فى هذه الأمور .

والموافقة هذه أمر لا بد منه، وهى ليست شرا فى ذاتها وأنها تكون شرا حين تسود فى المجتمع عقيدة باطلة أو فكرة خاطئة أو عادة ضارة ويطلب من الفرد أن يتابع المجتمع فيها. هنا يمتحن الإنسان. فالكثرة من الناس تخشى المفارقة والتميز وترضى بالم تابعة وإن تبين لها الخطأ، والقلة من الرجال والنساء التى تمتاز بقوة العزيمة والشجاعة وحب الحق هى وحدها التى تصمد وتقوى على التميز والمفارقة، وإذا ما تميزت وفارقت تبعها غيرها ممن هو أقل منها جرأة، وتبع هؤلاء غيرهم وهكذا إلى أن يحدث فى المجتمع - إن حدث - تيار جديد لا يلبث أن يكون هو الاتجاه الاجتماعى المقبول .

والمجتمع ليس كوما من الأفراد المتأثر الأهمية والأثر الاجتماعى، ولكنه نظام بعض الطبقات فيه أهم من بعض، وأشد أثرا على غيرها؛ فإذا تغيرت هذه أو سنت للناس سنة جديدة تبعها غيرها. هذه الطبقات القائدة تشمل طبقة قادة الفكر، وطبقة الحكام، وطبقة الأثرياء. ولذلك فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى مبدأ بعثته يوجه الدعوة إلى الأفراد البسطاء فقط وإنما كان يعطى إهتماما خاصا لرؤساء القبائل وفى المدينة وجه رسائله إلى الملوك والرؤساء، على أساس أن إسلام هؤلاء يقود إلى إسلام أتباعهم. ولذلك فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون نبيه الخاتم من قريش القبيلة التى قال عنها صلى الله عليه وسلم «الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم»^(١٢)، وفى رواية «الناس تبع لقريش فى الخير والشر»^(١٣).

(١٢) البخارى كتاب المناقب باب مناقب قريش .

(١٣) مسلم كتاب الأمانة .

سألت امرأة الخليفة الأول أبا بكر رضى الله عنه «ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم قالت: وما الأئمة ؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرهم فيطيعونهم ؟ قالت: بلى. قال فهم اولئك على الناس» (١٤).

الطبقة القائدة قد ترى رأيا أو تسن عادة لأنها توافق مصلحتها وهواها : وقد ترى الرأى لأنه حق وتسن العادة لأنها تراها حسنة، ثم يأتى كثير من أفراد الطبقات التابعة فيقلدونهم فى الرأى أو العادة لمجرد أنها قالت به أو سنته ومن غير نظر فى صواب الرأى وخطئه وحسن العادة أو سوءها .

ويبدو أن ما يصدق على الأفراد فى نطاق المجتمع القطرى أو القومى الواحد يصدق على الأقطار فى نطاق المجتمع الدولى، سيما فى عصر كعصرنا تقاربت فيه المسافات، وتوثقت الصلات، وتشابكت المصالح، واشتد لذلك التأثير المتبادل.

فالدول أيضا منها دول قائدة ودول مقودة. فالدولة الأقوى فكرا فى معرفة أمور الدنيا والتصرف فيها، والأكثر ثراء، والأشد قوة وبأسا، وهى الدولة القائدة، الرائدة التى يحتاج غيرها إلى فكرها وتجربتها ومالها ومنتجاتها، وما كان أقل منها فى هذه الجوانب فهى الدول التابعة .

فإذا رأت الدول القائدة رأيا، أو اتخذت فى حياتها طريقة، لأى سبب يخصها، قلدها الدول التابعة تقليدا أعمى.

هذا على فرض أن قادة الدول القائدة بقوا فى بلادهم، فكيف إذا انتقلوا إلى البلاد

(١٤) البخارى كتاب المناقب باب أيام الجاهلية «عن قيس بن أبى حازم قال دخل أوبكر على امرأة من أحس يقال لها زينب فرأها لا تكلم؛ فقال ما لها لا تكلم؟ قالوا حجت مصمتة. قال لها تكلمى. فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية فتكلمت فقالت من أنت ؟ قال امرؤ من المهاجرين. قالت أى المهاجرين ؟ قال من قريش. قالت من أى قريش أنت ؟ قال إنك لسؤول أنا أوبكر..

الضعيفة حكاما ورؤساء، وقادة فكر، كما حدث في العالم الإسلامى فى عهود الاستعمار، أو خبراء فى شتى نواحي الحياة أو اساتذة أو رجال أعمال كما هو الحال فى عالمنا الإسلامى الآن .

إنه حينئذ تجتمع لهؤلاء القادة الوافدين قوتان، قوة الدولة القائدة التى يمثلونها، وقوة المركز القيادى الذى يحتلونه فى داخل الدولة الضعيفة .

وبما أن الإنسان لا ينفق إلا مما يملك فإن هذه الدول الغربية القائدة إنما تنقل إلينا ما عندها، معتقدة أن موقفها هو الموقف الطبيعى الذى تقاس به الأشياء الأخرى، فدينها هو الدين، واقتصادها هو الاقتصاد، وفلسفتها هى الفلسفة، ومصلحتها هى المصلحة، فما عندها يُعرف بالألف واللام وأما ما عند غيرها فلا بد من تعريفه بالإضافة، فيقال دين إسلامى أو بوذى واقتصاد إسلامى وفلسفة عربية أو صينية أو هندية وكذلك قل عن لغتهم وزعيم وفهم المعارى وعاداتهم الاجتماعية .

أعود فأقول إن تبعية الفرد للمجتمع سببا إذا كان فردا من الطبقة الضعيفة وتبعية الأمة لجماعة الأمم سببا إذا كانت أمة ضعيفة أقول إن هذه سنة اجتماعية لا يمكن التغلب عليها بمجرد الأمانى .

ما الحل إذن ؟

إذا كان التحليل الذى أوجزناه سابقا صحيحا ومقبولا، فإن الحل النهائى الحاسم هو أن يزول التناقض بين الإلتناء إلى الإسلام والإلتناء لمجموعة الدول الضعيفة. وهذا يكون إما بأن تقوى الدول الإسلامية أو بأن تسلم الدول القوية، وكلا الأمرين ممكن، بل إن كل واحد منهما يساعد على الآخر. فإذا قويت الأمم الإسلامية احترمتها الشعوب الأخرى واحترمت تبعاً لذلك دينها، أما الآن فإن حال الأمم الإسلامية يفتن الناس عن الإسلام، وتلك مصيبة علمنا القرآن الاستعاذة منها :

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا »

(المتحنة : ٥)

وإذا سلمت الدول القوية القائمة شجعنا ذلك على العودة إلى الإسلام .

لكن دعونا الآن نحصر أنفسنا في أنفسنا. ما الحل بالنسبة لنا ؟ قلنا أن الحل النهائي الحاسم هو أن نكون أمة قائمة بالوصف الذى ذكرناه آنفا. ولكن كيف نكون أمة قائمة ومسلمة في نفس الوقت إذا كان تحليلنا يدل على أن ضعفنا الحالى يغرينا بالتخلي عن ديننا وتقليد غيرنا ؟

والحل في سنة اجتماعية أخرى، وهى أن بعض الأفراد في المجتمع - وهم في الغالب من أفراد الطبقات الضعيفة - قد يشذون عن قاعدة التبعية والموافقة إذا ما توفرت لهم الأسباب. إن لديهم الاستعداد للاستمسك بالحق متى لاح لهم، والعمل لاحقاؤه مهما كلفهم من جهد وسخرية اجتماعية، بل حتى لو كلفهم أرواحهم. إذا عرف هؤلاء الحق واستمسكوا به وأعلنوه وصبروا على الأذى الاجتماعى في سبيله، فإنهم يوشك أن يكونوا طبقة قائمة جديدة بفكرها القوى العملى الحركى، وإذا صاروا كذلك أسرع تأثيرهم في بقية العناصر القوية في المجتمع، وهكذا إلى أن يؤول الأمر إليهم، فإذا آل عملت السنة الاجتماعية الأولى عملها فتبعهم الناس أفواجا بعد أن كانوا ينضمون إليهم أفرادا أفرادا .

هكذا فعل أنبياء الله، وهكذا ينبغي أن نفعل إذا أردنا لحالنا أن ينصلح. لقد بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش القبيلة القائمة، وفي مكة البلدة القائمة - أم القرى - ولكنه لم يكن حاكما ولا كان ثريا. بدأ الدعوة باللسان - بقوة الفكر - فانضم إليه الأفراد الأقوياء، كثير منهم من الطبقة الضعيفة وقليل منهم من الأشراف. ودفع الضعفاء الحركة الإسلامية بصبرهم على الأذى والاضطهاد والقتل لأنهم اثبتوا أنهم يدافعون عن حق، ودفع الأشراف الحركة بصبرهم وبيذلهم أموالهم واستغلالهم مكانتهم الاجتماعية في سبيل نشر الحق وتبليته. ثم كانت بيعة العقبة وكانت الهجرة فصارت للدعوة الجديدة أرض مستقلة، وانضم الحكم الى النبوة ثم كانت غزوة بدر الكبرى وهزيمة المشركين عسكريا بعد أن هزموا فكريا، ثم توالى الغزوات وتوالى معها الانتصارات حتى فتحت مكة فصارت الدولة الجديدة دولة مهيبة. عندئذ نزل قول الله تعالى:

«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»

وهكذا فعل موسى. توجه بالدعوة الى الرئيس الكبير لعله أن يسلم ففى إسلامه حقن للدماء وانتشار للحق بغير عناء:

« فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ »

(طه : ٤٤)

ولكن إذا كان فرعون من النوع الذى يعميه العلو فى الأرض عن رؤية الحق فما كل افراد الناس فى بلده كذلك. لقد جئ بالسحرة ليهزموا موسى وكان أكبر شرف يطمعون فيه أن يكونوا من المقربين لفرعون، ولكنهم رأوا الحق ناصعا فقالوا لفرعون وهو يهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ثم بالصلب فى جذوع النخل، قالوا له:

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِمَا يَبَيِّنَٰ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا »

(الأعراف : ١٢٦)

وهم لا يرون من حق إنسان أن يمنع انسانا من اتباع الحق حين يصدق فجره .

بداية الطريق إذن ابتداء حركة من هذا النوع. ولكن هذه الحركة بحمد الله قائمة بل إنها لحركة تكفل الله تعالى للأمة المحمدية بأن لا يخلو منها زمن من الأزمان فقد قال صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى امر الله وهم كذلك»^(١٥) وهذه الطائفة ليست جماعة بعينها واسمها وشعاراتها ولكن يدخل فيها كل إنسان يستمسك بالحق. ويدعو إليه سواء كان من أفراد الطبقة القائمة أو من ضعفاء الناس وسواء كان يعمل مستقلا أو فى جماعة .

وفى العالم اليوم - لا أقول فى العالم الاسلامى - بل فى العالم كله حركة إسلامية تتمثل فى جماعات شتى وأفراد وهيئات رسمية وشعبية كلها تعمل فى حدود طاقتها للعودة بنا إلى الإسلام .

فنقطة البداية إذن موجودة .. إنها الحركة أو الدعوة الإسلامية بالمفهوم الشامل الذى

(١٥) مسلم كتاب الأمانة .

ذكرته، والمهم أن تتسع رقعتها ويصلب عودها، بتنمية فكرها وتقويته وببذل المال، وبمساعدة السلطات الحاكمة ما كان ذلك ممكنا .

إذا حدث كل هذا وهو حادث باذن الله أمكننا أن نسير خطوات أكثر في مواجهة الحضارة الغربية، لا بإيقاف غزوها لنا فحسب، بل بهداية أصحابها إلى الصراط المستقيم. إن طموحنا ينبغي أن لا يقف عند حدود الدفاع ورد العدوان الفكرى بل ينبغي أن يتعداه إلى طلب المعتدى ودعوته. كيف ؟

كيف نواجه الحضارة الغربية ؟

كيف نواجهها فنكف أثرها السلبي عنا وكيف نواجهها فنقومها ونصلحها لكى تكون حضارة إنسانية حقا .

لقد قلت إن هذا لا يتأتى لنا إلا إذا صرنا أمة قائدة وتحدثت عن الخطوة الأولى نحو تلك القوة وفيما يلي نستكمل بقية الخطوات بإيجاز شديد .

إن المطلوب من الدعوة الإسلامية أن تحقق ما يلي:

أولا : الحكم بالاسلام. ومن أهم عناصر هذا الحكم:

أ - الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى سواء كانت تبعية سافرة أو مقنعة. ولعل هذا الاستقلال هو الآن أصعب الأشياء منالا فهو يحتاج - مع الأخذ بكل الأسباب - المادية اللازمة له - إلى إيمان راسخ وتوكل على الله تعالى وتذكر دائم لقوله سبحانه:

”وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنَّا أَرْضَنَا ۖ أَوَلَمْ تُنَمِّكُنَّ لَهُمْ حَرَمًا
ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ تُحْرَتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ“

(القصص : ٥٧)

ب - حرية سياسية تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده، بين أفراد مساوين له في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية، وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره وجهده في إصلاح حال بلده، يقول للمصيب أصبت وللخطيئ اخطأت مهما كان منصبه ثم يذهب لينام قرير العين لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس إرضاء لنزوة حاكم. إن فقدان الحرية السياسية يفقد المواطن الشعور بالإنتماء لبلدهم ويولد فيهم الأحساس بأن البلد ملك الحاكم، من رضى عنه نال الحظوة ومن سخط عليه فلأمه الهبل. ولا يتصور من انسان يشعر بهذا الشعور أن يقوم بعمل جليل كالذى نريد .

ج - عدل اجتماعي، وهو جزء مكمل ولازم للحرية السياسية، كما أنه عامل فعال في زيادة الإنتاج . إن الجور الاقتصادي كالجور السياسى ينافى علاقة الأخوة التى هى العلاقة الأساسية بين المسلمين فى الدولة ويولد فيهم مشاعر سلبية لا اجتماعية تؤثر فيما تؤثر على إنتاجهم الاقتصادي .

د - أمر بالمعروف ونهى عن المنكر تسخر له وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها وتستغل لتحقيقه كل الأساليب التى تحجب المعروف إلى الناس وتكره المنكر إليهم مع عناية خاصة بالصلاة فى جماعة

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ »

(الحج : ٤١)

هـ - إقامة الحدود كفا للمعتدين واستدراار لرحمة رب العالمين .

ثانياً: تغيير العلوم إسلامياً:

أ - بتقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام والتى تمثل إطارها الفلسفى وإن لم تبرز فى مضمونها الحرفى .

ب - بإطراح كل النظريات التى لم يشبها واقع والتى تخالف حقائق قررها الإسلام . ولا بأس من دراستها للنقد .

ج - باستبدال الإطار الفلسفى الإلحادى بإطار توحيدى .

- د - باعتبار الوحى مصدرا من مصادر الحقيقة وهذا يستتبع ادخال كل ما أثبتته القرآن وصحيح السنة فى مضمون العلوم. كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها.
- هـ - بالسعى نحو الإصالة فى كل ما نعالج من مشاكل وما نعطى من أولويات .
- و - بصياغة العلوم كلها طبيعيتها وانسانيتها بلغة عربية فصيحة حتى تكون اللغة العربية لغة العلوم، كما هى لغة الدين والأدب .

ثالثا: دراسة الغرب تاريخه، واقعه، مستقبله، تجاربه، من وجهة نظر إسلامية. إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه. بل نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون وقد آن لنا أن نعكس الأمر فيكون لنا مختصون بشئون الغرب يعالجون قضاياها على أساس إسلامى. وأعنى بالإسلامية هنا الحقائق التى جاء بها الإسلام كما أعنى بها مصالح المسلمين الوضعية .

رابعا: المرجو من محاولات صياغة العلوم على أساس إسلامى ومن الدراسات الغربية أن تساعدنا فى الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية، ولكن يمكن أن نجعل فيما يلى ما ينبغى أن يؤخذ وما ينبغى أن ينبذ من هذه الحضارة .

١ - أما ما تأخذه فهو :

- أ - المنهج العلمى (بعد تنقيته من الشوائب الالحادية).
- ب - والحقائق الجزئية التى كشفتها العلوم ومعرفتها لا يمكن أن تعزل عن معرفة العلوم التى أدت اليها.
- ج - وما بنى على هذه العلوم من تقنية فى صورة آلات ومهارات، وما أدت اليه هذه التقنية من تصنيع.

٢ - ثم لابد لنا من الاستفادة من تجربته فى كل مجالات الحياة المعاصرة : المؤسسات التعليمية والأعلامية والاقتصادية والعسكرية والفنون الإدارية على أن نكيف ما تأخذه مع إطارنا الإسلامى ولا نغير هذا الإطار بالنقل الحرفى لكل ما عندهم كما يحدث الآن فى العالم الإسلامى.

٣ - أما الديانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد ، فلا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق. ولكننى أرى مع ذلك أن لا نقطع صلتنا بها قطعاً كاملاً بل ينبغي دراستها باعتبارها واقعا ينبغي أن نعرفه باعتبارها هديا نستهدى به، ولذلك أرى أن لا يفتح لها باب الولوج الى الجماهير الإسلامية بل ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

والمؤسف حقا أن هذا الجانب غير المفيد هو الذى يروج عندنا بفعل وسائل إعلامهم ووسائل اعلامنا.

٤ - إن أشد أسلحة الغرب الفكرية خطرا علينا وتدميرا لنا بل خطراً على الغربيين انفسهم وتدميرا لهم، هو التصور الأحادى للوجود الذى كاد أن يصبح سمة العصر والذى لا تكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة العلمية أو الفنية ، العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية والمفكرين الإسلاميين فإذا نجحنا فى التصدى له بالنقد العقل العلمى المستير وإذا استطعنا أن نقدم تصورنا الإيماني إطارا بديلا لهذا الأطار الأحادى وأقمنا الحجج العلمية والشواهد الواقعية على أنه الأطار المناسب للمنهج العلمى ولحقائق العلوم الطبيعية والبشرية وللثقافة الإنسانية وبالتالى للحياة السعيدة تكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنسانى كله. وذلك أن هذا المجتمع يقترب من الدمار كلما ساد فيه فساد التصور الذى يؤدى إلى فساد السلوك، وكلما خبا فيه نور الرسالة المحمدية.

ولكن هذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين . يحتاج إلى يقين بأن تصورنا الإيماني هو الحق الذى لا ريب فيه وأن التصور الأحادى بكل لوازمه وفي كل صوره وأشكاله تصور باطل مفسد.

ويحتاج إلى صبر فى مواجهة هذا التصور والتصدى له وعدم مسالمته أو مداهنته بحجة المعاصرة أو الحضارة أو التجديد مهما طال الزمن وضجت الدعايات وسقط المنهزمون.

والصبر واليقين هما الشرطان اللذان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية
المقتدية بهدى رسل الله:

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ^ط وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ »

(السجدة : ٢٤)

وصدق الله العظيم.

جعفر شيخ إدريس

